صورة بشار بن برد في كتاب الأغاني

الدكتور محسن غياض

من فضل أبي الفرج الاصبهاني على الادب واهله ان ترك لنا كتابه العظيم (الاغاني) مصدراً جليلاً للدراسات الادبية ومعيناً لاينضب من اخبار الشعراء واشعارهم ونوادرهم يصدر كل ذلك بأسانيد تطول او تقصر لارواة الذين سمع عنهم واسماء الكتب التي اعتمد عليها حرصاً على الامانة العلمية في النقل وابراء للذمة .

ولم يكن أبو الفرج في كتابه هذا باحثاً علمياً مدققاً فهو لايناقش الاخبار ولا يوازن بين الروايات . فقد يكرر الخبر الواحد في اكثر من موضع بصيغ مختلفة وقد يذكر الخبر ونقيضه في صفحة واحدة وقد ينسب الشعر لشاعر في موضع ، ولغيره في موضع آخر ، فقد كانت غاية جهده أن يجمع تلك الاخبار الكثيرة ويدونها حفظاً لها من الضياع ويقدم للباحثين مادة دسمة غنية لبحوثهم ويشارك فيها بتقديم وتهيأة مادتها الاولى .

وقد ترك أبو الفرج للاجيال التي تأتي بعده اليوم وغداً مسؤولية غربلة تلك الاخبار ومناقشتها ودراسة الشعر والشعراء من خلالها على أسس رصينة من البحث العلمي وقواعده .

وقد رأينا أن ندرس بشاراً من خلال هذه المادة الكثيرة الغنية من الاخبار التي قدمها أبو الفرج عنه . ونحاول ان نحدد له صورة واضحة المعالم والسمات .

نسبه :

وقد ذكر أبو الفرج روايتين مختلفتين في نسب بشار . ذكر له في الاولى اربعة

وعشرين جداً وذكر له في الثانية ستة اجداد ، وكل تلك الاسماء أعجمية تنهي نسب الشاعر الى ملك من ملوك العجم اسمه (يستاسب ابن لهراسف) [1] .

ونحن نشك في صحة هذا النسب وهذه الاسماء كما نشك في كثير من تلك السلاسل النسبية الطويلة التي ذكرها أبو الفرج للشعراء ، ولا ندري ما الذي دفع اولئك الرواة الذين نقل عنهم أبو الفرج الى حفظ تلك المجموعة الكبيرة من الاسماء الاعجمية لاجداد رجل كبشار ، وهو مولى من اسرة فقيرة كادحة ولم يكن من اصحاب الشأن والسلطان ليحفظ الناس نسبه ولتنقل معرفته من جيل الى جيل . اما نسبه الى ملوك الفرس فشيء ادعاه بشار في شعره وأوهم الناس به فصدقه بعضهم وخدع به كقوله (من المتقارب) :

نمت في الكرام بني عامر فروعي وأصلي قريش العجم [2]

وقوله (من الرجز) :

ورب ذي تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد [3]

وقوله (من مجزوء الرجز) :

جسدي الذي اسمو به كسرى وساسان أبي [4]

وإذا علمت ان برداً هذا الذي يقرن بالاكاسرة كان طيّاناً يضرب اللبن [5] عرفت مقدار كذب بشار وادعائه . وضحكت عليه ورحمت له .

نشأته ورولاؤه :

كان بشار اعجمياً في نسبه سكنت اسرته بلاد العرب منذ زمن جده « يرجوخ » الذي كان من سبي المهلب بن ابي صفرة . ثم صار أبوه برد مولى لأمرأة من بني عقيل أهدته اليها زوج المهلب .

وفي بني عقيل ولد بشار وولاؤه لهم معروف ذكره في شعره اكثر من مرة [6] ،

---

(١) الاغاني ١/١٢٥ (٢) الاغاني ٣/١٣٨ (٣) الاغاني ٣/١٢١
(٤) الديوان ١/٢٧٩ (٥) الاغاني ٣/١٣٧ (٦) الاغاني ٣/١٣٨ ، ١٣٩

وعزا لنشأته في عقيل فصاحته وتمكنه من العربية ، واعترف بهذا الولاء احد اولاده بعد ذلك فقال : (ولاؤنا لبني ربيعة بن عقيل) [1] .

وبشار لايأنف من اصله الأعجمي ذاك وانما يذكره ويفخر به [2] .

وقد اتهم ابو الفرج بشاراً بالتلون في الولاء ، وذكر له ثلاثة نصوص شعرية [3] في هذا ، الاول يفخر فيه بولائه لقيس :

أمنت مضرة الفحشاء اني ... ارى قيساً تضر ولا تضار

والثاني يفخر فيه بولائه لبني عقيل :

انني من بني عقيل بن كعب ... موضع السيف من طلى الاعناق

والثالث يتبرأ فيه من الولاء للعرب ويقول انه اصبح مولى الله سبحانه :

اصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم ... مولى العريب تفذ بفضلك فأنفر

مولاك اكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المشعر

فارجع الى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك الاجل الاكبر

ونحن لا نرى في ذلك تلوناً في الولاء ولا تناقضاً بين النصين الاول والثاني ، فبنو عقيل فرع من قيس . والولاء لعقيل يستتبعه الولاء لقيس بالضرورة ، والفخر بالاصل لايتعارض والفخر بالفرع .

اما النص الثالث فقد عمد فيه بشار الى المغالطة ، اذ ان الولاء لله سبحانه وتعالى ـ والناس جميعاً عباده ومواليه ـ لايحلل من الولاء للعرب ولا ينفيه .

وأبو الفرج لايقدم لنا شيئاً كثيراً عن نشأة بشار الاولى . غير قوله انه ولد اعمى ونشأ في البصرة لاسرة فارسية فقيرة . وان أباه كان طيّاناً وكان أخواه قصابين . وانه قال الشعر وهو ابن عشر سنين وكان أبوه يضربه لهجائه الناس .

ولم يشر أبو الفرج الى ان بشاراً درس دراسة تخصص لعلم من العلوم على استاذ بعينه

(١) الاغاني ٣/١٣٦ (٢) الاغاني ٣/١٣٨ ، ١٧٦ (٣) الاغاني ٣/١٣٩

من الاساتذة ، وانما كانت ثقافته خلاصة ما سمعه من حلقات مسجد البصرة ومخالطته للمتكلمين وصحبته لهم [1] . اما علمه بالعربية وثقافته بها ، فقد استفادها من ولائه لفصحاء عقيل ومخالطته للاعراب وذهابه الى البادية [2] .

عصره وشعره الرسمي :

وقد ذكر ابو الفرج ان بشاراً كان (من مخضرمي الدولتين العباسية والاموية . قد شهر فيها ومدح وهجا وأخذ سني الجوائز مع الشعراء) [3] .

وليس بين ايدينا من شعره زمن بني أمية الا القليل . منه أبيات في النسيب أنشدت للوليد بن يزيد . وقصيدته البائية المشهورة في مدح ابن هبيرة . واخرى في مدح سليمان ابن هشام وثانية في هجائه بعد ان استقل جائزته [4] .

علاقته بالزهاد والفقهاء والشعراء :

وقد سلك بشار سبيل التهتك والمجون فساءت علاقته بفقهاء البصرة كالحسن وواصل ومالك بن دينار . كانوا يحرضون الناس والسلطة عليه وكان لا يتحرج من شتمهم وهجائهم [5] .

اما علاقته بشعراء عصره فقد ذكر ابو الفرج أن بعضهم كانوا يأتون اليه ينشدونه أشعارهم ويسألونه الرأي فيها كعلاء اللقط ومروان وأبي النضير [6] .

وكان سلم تلميذه وقد غضب عليه مرة لأنه سرق معنى له فترضاه سلم (وقبل رأسه ومثل بين يديه وقال : يا أبا معاذ خريجك وأديبك) [7] وقوله للرشيد (وهل أنا الا جزء من محاسن بشار وهل انطق الا بفضل منطقه) [8] .

---

(١) الاغاني ٣/١٤٦ (٢) الاغاني ٣/١٥٠ ، ٢٠٦ (٣) الاغاني ٣/١٢٥
(٤) الاغاني ٣/١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ (٥) الاغاني ٣/١٤٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠
(٦) الاغاني ٣/١٨١ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ (٧) الاغاني ٣/٢٠٠
(٨) الاغاني ١٩/٢٤٢

وكان بشار باراً بأبي الشمقمق يعطيه من ماله ويشفع له عند عقبة بن سلم [1] ولبشار مهاجاة مع جرير بن المنذر السدوسي وحماد وابي هشام الباهلي [2] .

علاقته بالعباسيين :

اتخذ بشار المديح وسيلة للتكسب كغيره من الشعراء منذ زمن بني أمية ، وعند ما جاء العباسيون حاول الاتصال بالمنصور فأعرض عنه ولم يلتفت اليه ، ولم يكن أبو جعفر كثير الاحتفال بالشعر حريصاً على تقريب الشعراء وتكريمهم .

وعند ما جاء المهدي قرب بشاراً وأجزل له العطايا فأكثر من مديحه كما مدح يحيى بن خالد البرمكي [3] واكثر من مديح عقبة بن سلم وابنه نافع من بعده وكانا يبالغان في تكريمه وبره [4] .

وبشار يمدح تكسباً ، كما قلت ، وليس شاعراً من شعراء البلاط الملازمين له ، وانما كان يفد عليه في فترات متباعدة . ولذلك لم يجادل في حق العباسيين بالخلافة ولم يخاصم من اجلهم ، كما فعل مروان وعلي بن الجهم ، وغيرهم ، كما لم يفعل ذلك زمن بني أمية .

لم يكن بشار من شعراء السياسة ولا نستطيع أن نتبين له مذهباً سياسياً معيناً . اما الميمية المشهورة التي أنشدها ابراهيم بن عبد الله الحسني في تأييد الثورة على المنصور وتحريض الناس عليه [5] فانما كانت قصيدة يذم الشاعر عليها بعد ذلك وأراد ان يوهم الناس انه قالها في ذم ابي مسلم الخراساني ، بعد ان وضع اسمه مكان اسم المنصور من القصيدة ، وهي لا تعكس لنا موقفاً سياسياً بقدر ما تعكس إنتهازية بشار وسوء تقديره للامور ، فقد تصور ان الثورة ناجحة لامحالة . وان سلطان المنصور يوشك على الزوال بعد ان اندلعت ثورة محمد النفس الزكية في المدينة وثورة اخيه ابراهيم في البصرة في وقت واحد تقريباً .

---

(١) الاغاني ٣/١٢٨ (٢) الاغاني ٣/١٣٧ ، ١٤١ ، ١٥٣

(٣) الاغاني ٣/٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ (٤) الاغاني ٣/١٧٦ ، ١٨٩ ، ٢٣٠

(٥) الاغاني ٣/١٥١ ـ ١٥٧

وبعد ان استطاع انصار ابراهيم الوصول الى فسطاط المنصور ونهب معسكره ، تصور بشار اذن ان الامر صائر دون ريب الى الحسنيين فأراد ان يتخذ له يداً عند ابراهيم ليذكره اذا ولي الامر ويجعله شاعره الاثير المقرب . هذا فضلا عن اعتقادنا بكراهية بشار للمنصور لبخله وعدم تقريبه له او لغيره من الشعراء ولقتله ابن هبيرة بعد ان أمنه ، وقد كان ابن هبيرة هذا صاحب بشار وولي نعمته وكان التعصب للقيسية يجمع بينهما ويحبب احدهما الى الآخر [1] .

ولا يمكن ان نعدّ بشاراً متشيعاً بسبب هذه القصيدة او ميالاً للعلويين كما ذهب الى ذلك الدكتور طه حسين والدكتور الحاجري [2] وآية ذلك ان بشاراً غيّر في القصيدة بعد اخفاق الثورة واتصل بالعباسيين ومدحهم ، كما اننا لا نجد له شعراً آخر في العلويين او في تأييدهم زمن المهدي [3] .

ونحن نعلم ان ابراهيم كان زيدياً وكانت ثورته ثورة الزيدية والمعتزلة [4] ولم يكن بشار من اولئك، ولو كان كذلك لأشار اليه ابو الفرج وهو زيدي كما نعلم ولقرّبه يعقوب ابن داود وزير المهدي ولما سعى في قتله ومحاربته ، وقد كان يعقوب احد وجوه الزيدية ورجالها [5] .

علاقته بعلماء اللغة :

اما علاقته بعلماء اللغة فلم تكن حسنة دائماً . اذ كانوا يعيبون عليه بعض شعره ، وكان كغيره من شعراء عصره يسخر بهم ، ويهجوهم ويرى انه افصح منهم واعلم بالعربية وانهم ينبغي ان يسألوه ويتعلموا منه .

---

(١) الاغاني ٢/٢١٩

(٢) حديث الاربعاء ٢/٢٠٩ وبشار بن برد للحاجري ٩ ، ٤٥ ، ٢٠

(٣) مقاتل الطالبيين لابي الفرج ٨٩١ ـ ٣٠٨ (حالة العلويين زمن المهدي)

(٤) المصدر السابق ٢٢٩ ـ ٢٧٩ (ثورة ابراهيم بن عبد الله)

(٥) الطبري ٦/٣٨٢

وقد ذكر ابو الفرج ان الاخفش وسيبويه عابا عليه بعض شعره . فهجاهما فكانا بعد ذلك يستشهدان بشعره (استكفافاً لشره) [1] .

ولسنا نعتقد ذلك ولا نؤمن به فقد كان حسبهما عدم ذكر شـــعره وتسقّط عيوبه ليكف عنهما أذاه وسوء لسانه . اما الاستشهاد بشعره تعلقا له فشيء لا يمكن تصديقه . اذكان هؤلاء العلماء اشد امانة وأكثر خشية لله أن يفعلوا ذلك أو يرضوه لانفسهم ، ولو صدقنا مثل هذا ـ وهو أمر بالغ الخطورة ـ لدفعنا بالضرورة الى التشكيك في قيمة جميع شواهد الاخفش وسيبويه . وعدم الاطمئنان اليها ، وهذا ما لا يقوله عاقل ولا يرضى به احد .

وتخطئة بعض العلماء لشاعر ما في هذه اللفظة أو تلك . لا تقوم دليلا على فساد لغتـه أو الشك في فصاحته . اذ ربما كان فيها على حجة من كلام العرب ولغات بعض قبائلها ، وأين العالم الذي ألم بكل كلام العرب واساليبها ولغاتها ، ولم يكن لبشار من العجـم الا الاصل والنسب فقد ولد ونشأ وعاش في بلاد العرب . وكان يختلط بالاعراب ويعاشر البدو ويسمع عنهم [2] ،وقد سئل مرة عن خلو شعره مما يُستنكر أو يُشك فيه من الالفاظ. فقال :(ولدت ها هنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم احد يعرف كلمـة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت الى أن ادركت ، فمن أين يأتيني الخطأ) [3]

وكان خلف الاحمر وخلف بن ابي عمرو بن العلاء يزورانه ويسجلان عنه ويسألانه عن الغريب [4]

وفاته :

وعن وفاة بشار ذكر ابو الفرج عدة روايات تقول الاولى ان بشاراً قصد المهدي مادحا بقصيدته المعروفة (من الطويل) :

---

(١) الاغاني ٣ / ٢٠٩ ـ ٢١٠ (٢) الاغاني ٣ / ٢٠٩
(٣) الاغاني ٣ / ١٥٠ (٤) الاغاني ٣ / ١٩٠

تجالات عن نهر وعن جارتي فهر ... وودعت نعمى بالسلام وبالبشر

فلم ينل منه شيئاً فهجاه في حلقة يونس النحوي بقوله :

خليفـــة يزني بعـــاتـــه ... يلعب بالدبوق والصولجان

أبدلنـــا الله به غـــيره ... ودس موسى في حر الخيزران

فسمي به أهل الحلقة الى يعقوب بن داود (وكان بشار قد هجاه بقوله (من البسيط):

بني اميه هبوا طـــال نومكم ... ان الخليفـة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزق والعود [1]

فبلغها يعقوب للمهدي (فكاد ينشق غيظاً وعمد الى الانحدار الى البصرة للنظر في أمرها ، وما وكده غير بشار . فانحدر فلما بلغ الى البطيحة سمع أذاناً في وقت ضحى النهار فقال انظروا ما هـــذا الاذان ؟ فاذا بشار يؤذن سكران . ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسوط فضربه بين يديه على صدر الحراقة سبعين سوطاً أتلفه فيها . ثم ألقي في سفينة حتى مات ثم رُمي به في البطيحة . فجاء بعض أهله فحملوه الى البصرة فدفن بها) [2].

ولنا على هذه الرواية اعتراضات عدة أولها ان حلقة يونس النحوي في البصرة وليست في بغداد ثانيها ان بيتيه (بني امية ...) لانجد فيهما هجاء ليعقوب بن داود كما يزعم ابو الفرج وغيره وانما فيها تحريض عليه وهجاء للخليفة ، ثالثها سؤالنا عن السبب الذي يدعو الخليفة للذهاب الى البصرة طلباً لبشار .

وكان يمكنه ان يكلف شرطته أو والي البصرة بالقبض عليه والمجيء به الى بغداد . ثم ما الذي يدعوه لو أراد ذلك بنفسه أن يعود على الناس ويتظاهر بأنه انما يسافر للنظر في امر البصرة وهو لا يريد ان يظفر بأمير خطير أو ثائر صاحب جند واتباع . وانما يريد رجلا لاحول له ولا طول امام قوة الخلافة وسلطانها .

---

(١) الاغاني ٣ / ٢٤٣ (٢) الاغاني ٣ / ٢٤٤

البطيحة : ارض واسعة بين واسط والبصرة . والحراقة سفينة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو .

واذا افترضنا صحة هذه الرواية جدلا وان حلقة يونس بن حبيب كانت في بغداد فنحن نفترض أن هجاء بشار للخليفة وصل الى اذنه سريعاً بفضل الوشاة وان بشاراً وهو رجل اعمى كبير السن لم يكن قادراً على سرعة الحركة والانتقال . وكان باستطاعة الشرطة ان تقبض عليه وهو في بغداد أو على مشارفها .

ثم نحن بعد ذلك نتعجب لهذا الراوية الذي توهم في نفسه الحذق والمهارة فرتب مثل هذه المصادفة العجيبة التي جمعت بين المطارد وطريدته على ارض البطيحة . فاذا بشار يترنح سكران في تلك الصحراء المترامية ولا يكاد يرفع صوته بالاذان والوقت ضحى حتى تكون حراقة الخليفة بمحاذاته فيسمعه ويأمر بقتله .

أليس عجيباً ان يصل الاعمى على بعيره والخليفة بحراقته السريعة على دجلة في وقت واحد لمكان واحد .

واذا افترضنا ان بشاراً حمل معه على بعيره من الخمر ما يجعله سكران حتى يصل البطيحة ـ اذ ليس في الصحراء أماكن للخمور وبيعها ـ أفليس غريباً أن يؤذن السكران بدلا من أن يتغنى على عادة السكارى أوسمع أحدكم بسكران يؤذن قبل بشار . أوليس هذا كله تكلفاً من الراوية ليثبت بطريقة ساذجة تهمة الزندقة لبشار وليبرر قتل الخليفة له ؟ اما الرواية الثانية فتقول ان يعقوب بن داود هو الذي قتله وقد خاف ان يقدم على المهدي فيمدحه ويعفو عنه بعد ما بلغه من هجائه [1] .

والرواية الثالثة اقرب الروايات الى المنطق فهي تذكر كسابقتها ان بشاراً مدح المهدي ووزيره ببغداد فلم يعطياه شيئاً ، ثم انه اطال المقام بباب داود وذكره بجائزته فأعرض عنه (فلم يعطف ذلك يعقوب عليه وحرمه ، فانصرف الى البصرة مغضباً) [2] .

ثم ان المهدي قدم البصرة زائراً ووصل الشعراء على يدي وزيره ولم يعط بشاراً شيئاً وحرمه مرة ثانية . فذهب بشار الى حلقة يونس وانشد هجاءه في الخليفة . وعند ما سمع

---

(١) الاغاني ٣/٢٤٥ (٢) الاغاني ٣/٢٤٦

بذلك أمر ابن نهيك صاحب شرطته بأخذ بشار (وأزف خروجهم فخرجوا وأخرجه ابن نهيك معه في زورق . فلما كان بالبطيحة ذكره المهدي فأرسل الى ابن نهيك يأمره ان يضرب بشاراً ضرب التلف . فضرب سبعين سوطاً مات منها والقي في البطيحة) [1] .

وهذه الرواية تفسر لنا اين كانت حلقة يونس ولماذا قتل بشار في البطيحة بين البصرة وبغـــداد .

وقد ذكر ابو الفرج رواية يقول فيها انه عند ما ضرب بشار بأمر الخليفة (ما بقي بالبصرة شريف ألا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا ومات بالبطيحة) [2] ولو كان بشار مرض في بيته قبل موته لصدقنا هذه الرواية ولكن كيف نفسر ان يحمل اشراف البصرة فرشهم وهداياهم تلك من البصرة الى البطيحة لرجل مقتول بالصحراء بأمر الخليفة .

ثم كيف (تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا) [3] عند ما مات بشار كما يقول أبو الفرج وما كان للرجل من الطول والقوة ما يرهب به مدينـــة كاملة ويضطر اهلها الى مثل هذا النفاق والرياء . وهل من المعقول ان نفوس اهل البصرة فسدت كل هذا الفساد المنكر يحملون هداياهم للرجل اليوم ويتبادلون التهاني بموته غداً .

ثم كيف نصـدق قول ابي الفرج في ان احداً لم يخرج وراء جنـازة بشار غير امة له سوداء [4] اين كان أهله وتلامذته واصدقاؤه والمعجبون به والنسوة المتظرفات اللواتي كن يزرنه ويحفظن شعره كما يقول ابو الفرج [5] واين مواليه من بني عقيل الذين كانوا يستنجدون به اذا هجاهم احد من الشعراء ويقولون له : (يا أبا معاذ نحن اهلك وانت ابننا وربيت في حجورنا فأعنا) [6] .

فلئن كان لبشار مبغضاً الى اهل الورع والتقى من البصريين ، لقد كان محبباً الى شبابهم وأهـل المجون والعبث منهم . الم يقل أبو الفرج قبل هـذا (وعهدي بالبصرة وليس فيها

---

(١) الاغاني ٣/٢٤٦ (٢) الاغاني ٣/٢٤٢ (٣) الاغاني ٣/٢٤٨
(٤) الاغاني ٣/٢٤٨ (٥) الاغاني ٣/٢٠١ (٦) الاغاني ٣/٢١٠

غزل ولا غزلة الا يروى من شعر بشار ولا نائحة ولا مغنية الا تتكسب به ، ولا ذو شرف الا وهو يهابه ويخاف مرة لسانه)[1] .

واذا تركنا جانباً اصحاب الشرف هؤلاء الذين يخافون بشاراً فاين جمهوره هذا الكثير من الغزلين والغزلات والنائحات والمغنيات . أوليس ذلك من تناقض ابي الفرج رحمه الله فيما يورد من اخباره ؟

وفيما يتعلق بوفاته يذكر ابو الفرج خبراً غريباً ايضاً مفاده ان المهدى امر بتفتيش منزل بشار بعد ان قتله فوجد فيه ورقة كتب عليها ان بشاراً اراد هجاء آل سليمان بن علي العباسيين ، الا انه امسك عنهم اجلالاً لرسول الله (ص) لقرابتهم منه . الا انه قال فيهم :

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبابليين حفا بالعقاريت
لايبصران ولا يرجى لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروت[2]

وان المهدي بعد ان قرأ ذلك (بكى وندم على قتله وقال لاجزى الله يعقوب بن داود خيراً فانه لما هجاه لفق عندي شهوداً على انه زنديق فقتلته ثم ندمت حين لايغني الندم)[3] .

وعندنا ان هذه الرواية مختلقة لاصحة لها . اذ ان بها وجوهاً من الغرابة اولها دافع المهدي الى تفتيش منزل الرجل بعد ان قتله وفرغ من امره . أفلا كان ذلك قبل قتله اذ كان يريد البينة وقيام الحجة ؟ ثم منذ متى كان خلفاء الامويين والعباسيين يندمون على قتل الناس ، ويبكون لهم ، وقد كانوا يقتلون على الظنة والغضب

ولماذا ذكر الخليفة هجاء بشار لوزيره بعد مقتله لاقبله ؟ ثم نحن نعلم ان بشاراً كان اعمى لايقرأ ولا يكتب ولم يكن من الذين يحرصون على كتابة قصائدهم وظروف قوله لها واسبابه، فما الذي دفعه اذن ان يحرص على تكليف من يكتب له تفسيراً لعدم هجائه لآل سليمان فقط ؟

ثم ألم يكن المنصور والمهدي من ابناء عم الرسول العباسيين كآل سليمان فلماذا لم يتحرج بشار من هجائهم كما تحرج من هجاء آل سليمان ؟ ثم كيف يكون الهجاء اذا لم نعتبر بيتيه السابقين من اقذع الهجاء وأمرّه لآل سليمان وقد رماهم بالبخل والشح .

---

(١) الاغاني ٣/١٤٩ (٢) الاغاني ٣/٢٤٩ (٣) الاغاني ٣/٢٤٩

وهناك سؤال تثيره هذه الرواية اذا افترضنا صحتها جدلا ، وهو ما الذي فعله المهدي بوزيره وشهود الزور بعد ان تبين له كذبهم وانهم كانوا سبباً في قتله لشيخ اعمى في السبعين من عمره ضرباً بالسياط ؟ أيكتفي بالبكاء والندم أم يقيم عليهم حد الاسلام في شهادة الزور وهو خليفة المسلمين ، وحامي الشريعة واحكامها ؟

شعره :

وقد ذكر لنا ابو الفرج من شعر بشار ما يكفي لأن يحدد لنا اهم اغراضه واساليبه . كما ذكر لنا راويتين من رواته احدهما يحيى بن الجون العبدي [1] وثانيهما سلم الخاسر الذي قال للرشيد (وحياتك ياسيدي اني لأروي له تسعة آلاف بيت ، ما يعرف أحد غيري منها شيئاً) [2]

وقول سلم هـذا وقول بشار ان له اثنتي عشرة الف قصيدة [3] يدلنـا على كثرة شعر الرجل وان كان لا يقنعنا تماماً بهذا العدد الكبير لقصائده ، اذ لا يمكن لشاعر مكثر تبلغ قصائده الآلاف ان يحدد رقماً معينا لعدد قصائده أو يحيط بها حصراً .

ونحن نعلم ان بشاراً قال الشعر وهو ابن عشر سنين [4] فاذا طرحنـا هـذه السنوات العشر من عمره يكون بهذا قد قال الشعر لمدة خمسين سنة بمعدل مائتين واربعين قصيدة سنوياً اذا اخذنا برواية ابي الفرج الاولى التي يقـول فيها انه مات (وقد ناهز ستين سنة) [5] أو يكون قد قال الشعر لمدة ستين سنة بمعدل مائتي قصيدة سنوياً اذا اخـذنا برواية ابي الفرج الثانية في انه مات (وقد بلغ نيفاً وسبعين سنة) [6] ومع ان الفترة الزمنية الطويلة التي عاشها الشاعر وقوله المبكر للشعر وقريحته الموانية الفياضة مما يساعد على كثرة هذا الشعر ويفسرها . الا انه لا يمكن مع ذلك ان يكون له كل هذا العدد الهائل من القصائد ، ولا يمكن ان ينظم مائتي قصيدة أو تزيد كل سنة ، اللهم الا ان يكون آلة

---

(١) الاغاني ٣ / ٢٢٧
(٢) الاغاني ١٩ / ٢٤٢
(٣) الاغاني ٣ / ١٤٤
(٤) الاغاني ٣ / ١٤٣
(٥) الاغاني ٣ / ٢٤٧
(٦) الاغاني ٣/٢٤٩

من هذه الآلات التي تسير في زماننا هذا بالذرة والالكترون .

وقد ضاع معظم شعر بشار ولم يصلنا الا القليل منه . وهذا هو ما تعرض له شعر غيره من المكثرين كالسيد الحميري وابي العتاهية فنحن نعلم ان اغراض الشعر العربي محدودة معدودة وأكثار الشاعر من النظم بها بهذا الاسراف سبب مهم من اسباب ضياع شعره اذ ان الناس ينتقون لكل غرض احسن ما قيل فيه ويعرضون عن الباقي . اذ ليس من المعقول أن يحفظ أحد من الناس اربعة آلاف قصيدة في الغزل لبشار وحده أو ثلاثة آلاف قصيدة في المديح أو في اي غرض آخر .

وقد ذكر ابو الفرج ان بشاراً كان يحشو شعره اذا اضطره الوزن أو اعوزته القافية باسماء لا وجود لها على الحقيقة كأبي مجلز وابن قنان والبردان اسم لموضع [1] ، وهذه الملاحظة القيمة من ابي الفرج تدفعنا الى الاعتقاد بان كثيراً من اسماء الاعلام والاماكن التي وردت في الشعر العربي لا وجود لها على الحقيقة . ولعل غير بشار من الشعراء كانوا يعمدون ايضاً الى مثل ذلك اذا اضطرهم الوزن أو اعوزتهم القافية .

وقد ذكر ابو الفرج خبراً نادراً قال فيه ان بشاراً كان في مجلس مجزأة بن ثور السدوسي (وعليه بزة الشعراء) [2] فدلنا على ان الشعراء كانوا يتخذون بين الناس لباساً خاصاً بهم يعرفون به ويدل عليهم .

كما ذكر ابو الفرج ما يدل على ان شعر بشار تعرّض لبعض النحل والتزيد عليه في حياته فقد سمع ذات يوم رجلا ينشده قصيدته المشهورة (من الرمل) .

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيف ألم

(حتى بلغ قوله :

ختم الحب لها في عنقي ... موضع الخاتم من اهل الذمم

فقال بشار : « عمن أخذت هذا ؟ » . قال « عن راويتك فلان » فقال : « قبحه الله ،

---

(١) الاغاني ٣ / ١٦٣ ـ ١٦٤ (٢) ٣ / ١٦٦

والله ما قلت هذا البيت قط . أما ترى الى اثره فيه . ما اقبحه واشد تمييزه عني » فقال له بعض من حضر : نعم هو الحقه بالابيات) [1]

ومثل هذا النحل متوقع الحدوث بالنسبة لشاعر مكثر كبشار أو غيره .

وقد اختلط شعره واخباره باشعار غيره من الشعراء واخبارهم . اذ نجد ابا الفرج ينسب احدى القصائد لبشار مرة ولأبي العباس الاعمى مرة اخرى [2] .

وكذلك نسب احدى النوادر والقصص الماجن له مرة ولأبي العباس الاعمى مرة اخرى [3] ونسب له ادعاء الحج والتظاهر بالسفر له في موضع [4] ونسب ذلك لمطيع بن أياس في موضع آخر [5]

وكان بشار كما يذكر ابو الفرج حريصاً على اختيار الفاظه لتناسب عقل من يخاطبه ومزاجه . فقد اكثر من التغريب في احدى قصائده التي مدح فيها سلم بن قتيبة . وفسر ذلك بقوله (ان سلما يعجبه الغريب) [6] وعند ما أراد أن يرضي جاريته زبابة لانها تأتيه بالبيض من دجاج لها قال :

ربـــابة ربـة البيت تصب الخـــل في الزيت
لهـــا عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ورد على من عاب شعره هـــذا بقوله : (فهذا عندها احسن من قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل عندك) [7]

ومن خلال كتاب الاغاني تتضح لنا شدة اعجاب بشار بجرير وتعلقه به فقد ادركه في سنواته الاخيرة وهو في أوج عظمته ومجده الشعري فصور له غرور الشباب والاعتداد بالنفس انه يستطيع جره الى المهاجاة ليشتهر به الا ان جريراً أعرض عنه واستصغره [8] وكانت هذه بداية تعلقه بجرير ومحاولته لفت نظره اليه . ثم معارضته وتقليده والنسج على

(١) الاغاني ٦ / ٢٥١
(٢) الاغاني ٣ / ٢٢٤ ، ١٤ / ٢٣٠
(٣) الاغاني ٣ / ٢٢٤ ، ١٤ / ٢٣٠
(٤) الاغاني ٣ / ١٨٦
(٥) الاغاني ١٣ / ٣٠٠
(٦) الاغاني ٣ / ١٩٠
(٧) الاغاني ٣ / ١٦٢
(٨) الاغاني ٣ / ١٤٣

منواله بعد ذلك . وقد ذكر له ابو الفرج قصيدة نونيسة ضمنها ابياتاً من نونيسة جرير المشهورة ومنها :

وذات دل كأن البدر صورتها ... باتت تغني عميد القلب سكرانا

(ان العيون التي في طرفها حور ... قتلننـا ثم لم يحيين قتلانا)

فقلت احسنت يا سؤلي ويا أملي ... فاسمعيني جزاك الله احسـانا

(يا حبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا)

قالت فهلا فدتك النفس احسن من ... هذا لمن كان صب القلب حيرانا

يا قومي اذني لبعض الحي عاشقة ... والاذن تعشق قبل العين احيانا[1]

وقد مات له ولد فجزع عليه وتمثل بأبيات لجرير في مثل موقفه ذاك[2] ولعل تعلقه واعجابه بجرير فقط دون بقية الشعراء كان له اثر في شعره فهو وان كان يختلف عنه خلقاً الا انه يشابهه في فصاحة اللغة ورقة الالفاظ ، وسعة الخيال ووفرة العاطفة .

مكانته الشعرية وآراء النقاد فيه :

حدد أبو الفرج مكانة بشار الشعرية بقوله : (ومحله في الشعر وتقدمه طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يغني عن وصفه واطالة ذكر محله)[3] .

وهذا كما ترى حكم عام لا تفصيل فيه ولا وضوح فيم تقـدم بشار طبقات المحدثين وما وجه رياسته عليهم ؟

وقال الجاحظ : (كان بشار شاعراً خطيباً صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل وهو من المطبوعين اصحاب الابداع والاختراع المفتنين في الشعر القائلين في أكثر اجناسه وضروبه)[4] .

---

(١) الاغاني ٣/١٦٠ (٢) الاغاني ٣/٢٢٠

(٣) الاغاني ٣/١٣٥ (٤) الاغاني ٣/١٤٥

وقد كان بودنا لو وصلنا شيء من خطب بشار ونثره لتتكون لنا صورة واضحة عن هذا الجانب الثاني من أدبه ، وان كنا نعتقد انه لم يبلغ فيه من الجودة ما بلغ في شعره ، والا لكان قد وصلنا منه بدافع اعجاب الناس به وحفظهم ولو لجزء يسير منه .

ويلفت نظرنا في اقوال النقاد كثرة مقارنتهم له بمروان خاصة دون سائر الشعراء . وتبدو هذه المقارنة في معرض ردهم على اسئلة الناس : أمروان أشعر أم بشار ؟ وقد حكم له أبو عبيدة بالتفوق على مروان معتمداً على ادعاء بشار في كثرة الجيد من شعره وان له اثنتي عشرة الف قصيدة جيدة [1] .

وفضله الاصمعي ايضاً وقال في تفسير ذلك : (ان مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق من تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً . ومروان لم يتجاوز مذاهب الاوائل) [2] .

ولعل في هذا التفسير ما يلقي بعض الضوء على سبب تقديم النقاد له ، اذ هو في نظرهم مجدد سلك طريقاً جديداً في الشعر لم يسبقه اليه احد . اما مروان فكان مقلداً للاقدمين شديد المحافظة في شعره . وقد غضب الاصمعي لانه وجد اهل بغداد يختمون الشعراء بمروان لا ببشار . وقال : (وما كان مروان في حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه له بشار ويقومه . وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين ايدي الخلفاء بالشعر ويساويه في الجوائز وسلم معترف بانه تبع لبشار) [3] ولعل سبب تقديم البغداديين لمروان على بشار انهم كانوا يعرفونه اذ هو مقيم بينهم اكثر من معرفتهم ببشار الذي كان يزور بغداد لماماً ويطيل الاقامة في البصرة بعيداً عنهم .

ويجب ان لا ننسى ان الاصمعي كان بصرياً كبشار وربما كان ذلك من اسباب تعصبه له ، وكان يقول : (ان بشاراً خاتمة الشعراء والله لو لا ان ايامه تأخرت لفضلته على كثير

---

(١) الاغاني ٣/١٤٤ (٢) الاغاني ٣/١٤٢ (٣) الاغاني ٣/١٤٨

منهم) [1] .

ونحن لا نقبل هذا العذر من الاصمعي اذ لاقيمة لتقدم عصر الشاعر أو تأخره في تقويم منزلته وقيمة شعره الفنية .

وكان الاصمعي يشبّه بشاراً بالاعشى والنابغة ويشبه مروان بزهير والحطيئة ويقول : (هو متكلف) [2] كما فضل أبو عبيدة ميمية بشار في مدح ابراهيم بن عبد الله على ميمية جرير والفرزدق دون ان يشرح سبب هذا التفضيل او مبرره [3] .

وكان أبو زيد الانصاري يقول : (مروان أجد وبشار أهزل) . وقال الاصمعي : (بشار يصلح للجد والهزل . ومروان لايصلح الا لاحدهما) [4] .

اما أبو عمرو بن العلاء فقد حكم لبشار انه اغزل الناس بيتاً واهجاهم وأمدحهم [5] .

والى جانب هذه الغالبية من الآراء التي جاءت في صالح بشار . يقف ناقد واحد فقط هو اسحق الموصلي الى جانب مروان فيفضله على بشار ويقول : (هو كثير التخليط في شعره . واشعاره مختلفة ، لايشبه بعضها بعضاً أليس هو القائل :

انما عظم سليمى حبتي ... قصب السكر لاعظم الجمل

واذا ادنيت منها بصلا ... غلب المسك على ريح البصل

لو قال كل شيء جيد ثم اضيف اليه هذا لزينه .

وكان يقدم عليه مروان ويقول : هذا هو اشد استواء شعر منه . وكلامه ومذهبه اشبه بكلام العرب ومذاهبها وكان لايعد أبا نؤاس البتة ولا يرى فيه خيراً) [6] .

وموقف اسحق هذا واضح كل الوضوح فهو محافظ أشد المحافظة لا يحبذ الخروج على مذاهب العرب ولا يميل الى التجديد ولذلك كان حكمه قاسياً عليه وعلى دعاته كبشار وأبي نؤاس ونحن لا نوافقه على تطرفه هذا في ان ضعف ابيات شاعر ما كافية لرفض الجيد

---

(١) الاغاني ٣/١١٣ (٢) الاغاني ٣/١٤٩ (٣) الاغاني ٣/١٠٨

(٤) الاغاني ٣/١٤٩ (٥) الاغاني ٣/١٠٠ ـ ١٥١ (٦) الاغاني ٣/١٠٦

من شعره والحكم عليه بالضعف والتفاهة . اذ لايكاد يخلو شعر شاعر من مثل ذلك . يكون قد قاله في صباه أول عهده بالشعر . او قاله دعابة ومزاحاً وتفكهاً [1] .

وكما ينقسم النقاد اليوم في مسألة المحافظة والتجديد كذلك انقسموا زمن العباسيين بين محبذ لهذا التجديد مشجع له ، وبين كاره له ضيق به وبأصحابه .

ولم يحدد لنا النقاد المؤيدون لبشـــار والزارون به ، ما وجه التجديد عنده وما هي مقوماته وأين يقع من شعره ؟

أثر عماه في شعره :

ولد بشار أعمى كما نعلم وقد تركت هذه العاهة أثراً بعيداً في حياته وشعره . فهو دائم الاشارة لها كناية او تصريحاً ، وكان يعتقد ان ذكاءه وقوة حافظته وشاعريته الفياضة تعوضه عن بصره وتغنيه عنه . فقد قال :

عميت جنيناً والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا ... لقلب اذا ما ضيع الناس حصلا [2]

وقال :

أتاني ولم ترها تهذي فقلت لهم ... ان الفؤاد يرى ما لايرى البصر [3]

وقال ايضاً :

ياقوم اذني لبعض الحي عاشقة ... والاذن تعشق قبل العين احيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم ... الاذن كالعين توفي القلب ما كانا [4]

ومن ذلك قوله ايضاً :

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب

---

(١) الاغاني ٣/١٦٣ ، ١٨٧ ، ١٨٠ - ١٨٠
(٢) الاغاني ٣/١٤٢
(٣) الاغاني ٣/٢٣٨
(٤) الاغاني ٣/٢٣٨

فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الاذنان الا من القلب [1]

وقوله (من المنسرح) :

بلغت عنها شكلا فاعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر [2]

ولعلك قد رأيت كثرة تكرار بشار لذكر القلب والفؤاد والاذنين في هـذه الابيات القليلة واشارته الى انها تغنيه عن البصر وتقوم مقامه .

وكان بشار كغيره من العميان سيء الظن بالناس لا يطمئن الى همسهم ويفزع من نجواهم ويتوهم انهم يتشاورون به سوءاً . وفي ذلك يقول :

يروعـه السرار بكل ارض مخافة ان يكون به السرار [3]

وامعان بشار بالهجاء أثر من آثار عماه . فقد جمع الى العمى قباحة الشكل وسوء المنظر ولا شك انه تعرض الى ما يتعرض له غيره من العميان الذين ينشأون وسط رعاع الناس وأوباشهم الذين لا يحترمون عاهـة المبتلى بها . وانما يتخذونها وسيلة للتندر والمداعبة والمزاح الثقيل ولم تكن لديه وسيلة يدفع بها عن نفسه غير لسانه . وكلما ازداد اساءته بذاءة وقسوة ازداد خوف الناس منه وتجنبهم للعبث به والسخرية منه .

فالهجاء عنده اذن سلاح دفاع لا سلاح هجوم ، وهو اثر من آثار بيئته القاسية وعاهته الدائمة ولا مجال للمقارنة بينه وبين ابي العلاء الذي نشأ في بيئة مهذبة واسرة علمية كبيرة يحترمها الناس ويقدرونها .

وفي معظم الاخبار التي ذكرها ابو الفرج لم يكن بشار معتدياً أو بادياً بالعدوان وانما كان يدفع عن نفسه ويرد على من آذاه . الا ترى انه سمع ارجوزة عقبة بن رؤبة فقال له : أحسنت . فأجابه عقبة بقوله : (والله ما تحسن هذا يا ابا معاذ) . فاستثاره حتى غـدا بالارجوزة العزيزة الرائعة على عقبة وصمد لتحديه ، ومطلع الارجوزة :

يا طلل الحي بذات الصمـد بالله خبر كيف كنت بعـدي

---

(١) الاغاني ٢/٢٣٨ . (٢) الاغاني ٣/٢٢٩ . (٣) الاغاني ٣/٢٢٣ .

وقد قال الجاحظ معلقاً على هذا : (فانظر الى سوء ادب عقبة بن رؤبة . وقد اجمل بشار محضره وعشرته . فقابله بهذه المقابلة القبيحة) [1] .

وبعض هجائه كان معابثة لنفر من اصدقائه الذين تعودوا المزاح معه ، وكانوا يبالغون في استثارته ليهجوهم ويشتمهم . فقد ذكر ابو الفرج ان بعض صديقه هؤلاء تعرضوا له بنوع من المزاح الثقيل وشتموه فقال لهم : (قوموا عني يا بني الزنا . فاني مشغول القلب لست انشط لمشاتمتكم) [2] .

واذن فبعض هجاء بشار كان مزاحاً ودعابة ولم يكن يقصد به الى الجد او الى شيء من الشر ، صغر أم كبر .

وبعض هجائه كان لقوم قصدهم مادحاً ببديع شعره فحرموه الجائزة أو اعطوه نزراً ، وذلك كفيل باغاظته وشعوره بانه مدح اناساً لؤماء لم يكونوا اهلا لمدحه ولا لحسن ظنه وأنا أجيز للشاعر أن يهجو مثل هؤلاء ولا انكر عليه ذلك . اذ كفى لؤما بالانسان وسوء طبع الا يقابل مديح الشاعر له وحسن ظنه به بما يستحق من الرعاية والاكرام وان اناساً يريدون الثناء وخلود الذكر بالبخل والتقتير لجديرون بالهجاء والثلب .

وكان بشار لعاهته تلك لا يعتمد الا على شعره في كسب رزقه اذ لا يحسن عملا ولا يتقن صنعة ، وهو رجل صاحب اسرة وعيال . فمدح تكسباً وكانت اقدار الممدوحين لديه بقدر عطائهم . الا ترى انه سئل عن احسانه في مديحه لعقبة بن سلم وانه قال فيه ما لم يقله في أحد غيره . فقال : (ان عطاياه اياي كانت فوق عطاء كل احد) [3] .

وكما اثر عماه في مديحه وهجائه فقد أثر كذلك في غزله فهو في معظمه حسي محض يعتمد على ما تسمعه الاذن وما تلمسه اليد .

ومعظم غزله بالنساء وهو مبرء مما أوغل فيه بعض الشعراء من وصف الغلمان والتغزل

---

(١) الاغاني ٣/١٧٧ .
(٢) الاغاني ٣/٢٢٣ .
(٣) الاغاني ٣/١٩٤

بهم . فقد عابثه ابو عبيدة يوماً بقوله : (يا ابا معاذ أيعجبك الغلام الجادل ؟ فقال غير محتشم ولا مكترث : لا ، ولكن تعجبني امه) [1] .

وقد كان وصفه حسياً كغزله وان كان قد استعار معظم اوصافه وصوره من الشعر القديم الذي تمثله فاحسن تمثله . والبيت الذي اعجب الناس به وعجبوا له ، وهو :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه [2]

مستعار كله من صور الشعر القديم وتشبيهاته ولم يكن إختراعاً لبشار أو ابتكاراً منه ، فما أكثر ما وصفت العرب سيوفها بالكواكب وغبار المعارك بالليل البهيم . وقد وصف بشار السفينة في اكثر من موضع [3] وهذا اثر من آثار بيئته البصرية . ولعله كان يستخدم السفينة في اسفاره بين البصرة وبغداد .

اما الحكمة في شعره فهي خلاصة تجاربه في الحياة وطول معاشرته للناس ولا تربطه بمذهب فلسفي معين . ويستطيع الرجل اللبيب ادراكها دون حاجة الى افتراض تأثره بالعوامل الاجنبية وقراءة كتب ابن المقفع كما يذهب الى ذلك استاذنا الدكتور شوقي ضيف [4] .

فلقد :

كان بشار سليط اللسان لا يتورع عن الاقذاع والشتم كما كان متهالكا على اللذة حريصاً عليها ، ولكنه لم يكن شرا كله . ومن يقرأ اخبار ابي الفرج بامعان يجد الرجل جانباً خيراً في حياته وخلقه . فهو وان كان ساخطاً على الناس سيء الظن بهم الا ان ذلك لم يدفعه كما دفع ابا العلاء الى العزلة والتشاؤم ، وانما كان مع الناس يشاركهم في حياتهم وامورهم على ميل فيه للدعابة والسخرية منهم وبهم . لم يهرب من الحياة وانما واجهها وعاشها حلوة ومرة صارعها وصارعته وذاق خيرها وشرها . كان ذا زوج وعيال واخوة يرعاهم ويعيلهم

---

(١) الاغاني ٣/١٨٤
(٢) الاغاني ٣/١٤٢
(٣) الاغاني ٣/٢٤٢
(٤) تاريخ الادب العربي ٣/٢١٠

ويسعى في حوائجهم ، ولم يكن مجرداً من العاطفة الخيرة . فقد كان محباً لاخوانه وولده وصديقه باراً بهم . الا ترى الى اخويه اللصابين كانا يغيران على ثيابه يلبسانها ثم يتركان فيها من نتن الرائحة واقـــذار مهنة الجزارة ما يتركان فيحتمل ذلك كله ويرى فيه (صلة للرحم) [1] ، ثم الا ترى كيف سعى في حاجة ابي الشمقمق وشفع له عند عقبة بن سلم [2] وكان رثاؤه لمن مات من ولده وصديقه [3] مؤثراً صادقاً يدل على عاطفة مخلصة طيبة ونفس صافية شفافة يهزها المصاب ويعتصرها الحزن .

ثم اقرأ معي هذه الابيات الجميلة الجيدة لتعلم كرم بشار وبعض جوانب خلقه الحسن:

لقد كنت لا أرضى بادنى معيشة ولا يشتكي بخـــلا عليّ رفيق
خليلي ان المال ليس بنافع اذا لم ينل منه أخ وصديق [4]

عقيدته :

وقد كثر الحديث حول عقيدة بشار فهو متهم بالزندقة والشعوبية ، وهما عندي بمعنى واحد . فاذا كانت الشعوبية هي ان يطلب المسلم من غير العرب مساواته بالعرب فهذا شيء لا بأس به ولا ضرر منه وحق يكفله الاسلام لمن دخله . اما الفخر على العرب وذكر خشونة حياتهم البادية وشظف عيشهم فأمر لا تنكره العرب ولا تدفعه عنها .

كان العرب يكثرون من مفاخرة الاقوام الاخرى ، ومن حق هـذه الاقوام ان تفخر بما عندهـا ايضا وترد على العرب . وقـد كان بشار في معظم ذلك يرد على من فاخره وعاب عليه اصله ومن شك في ذلك فليرجع الى روايات الاغاني [5] . وحق الدفاع عن النفس حق مشروع . ثم ان هذه المفاخرات لا ضرر منها بين مواطني الدولة الواحدة طالمـا لا تعرض بسوء لاصول الدين وسيادة الدولة وامنها . وهو أمر متوقع في دولة تضم اشتاتاً من

---

(١) الاغاني ٣/٢٠٨ (٢) الاغاني ٣/١٧٨
(٣) الاغاني ٣-٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ١٦١
(٤) الاغاني ٣ / ٢٤٠ (٥) الاغاني ٣ / ١٦٦ ، ١٧٥

الناس والواناً من القوميات المختلفة ، ولم يبح الاسلام للعرب ان يفاخروا الناس فلا يرد عليهم احد بمثل ذلك .

والشعوبية التي اتهمها هي الزندقة عينها . وهي العمل الجاد ضد الدولة العربيـــة الاسلامية والطعن بالاسلام والزراية به ، وبهذا المفهوم لا أجد دليلا بيناً يدين بشاراً او يثبت عليه ذلك .

اما زندقته فقد جاءت من قبل الدولة التي قتلته . وقد عرفنا أن قتله كان لهجائه المهدي ووزيره ووالية على البصرة . والدولة طرف في الخصومة . ولا تقبل شهادتها في رجل قتلته فقد يكون ذلك تبريراً منها لمقتل الرجل امام الناس .

وقد ذكر ابو الفرج ان بشاراً سمع غناء بيت من شعره فقال : (هذا والله أحسن من سورة الحشر) [1] وفي هـذا قلة أدب من الشاعر ودليل على عـدم تحرجه في امر الدين . ولـكنه قال ذلك وقد استخفه الطرب ، ـ وهي حالة عاطفية حادة ـ قد يقول الانسان بها مالا يعنيه وربما كان سكران . ولو اننا أردنا ان نحكم بالـكفر على كل انسان لهفوة كهذه لاسرفنا في ذلك على الدين المتين واهله .

وقد اتهمه غير واحد بالمجوسية وتفضيل عبـادة النار على الطين مستدلين ببيته الذي يقول فيه :

النار مشرفة والارض مظلمـــة والنار معبودة مذ كانت النار [2]

ولا ينبغي ان نتكلف تفسير البيت ونحمله غير معناه ليوافق ما في نفوسنا من ميل الى تـكفير الرجل ، اذ ليس كفراً ان يقول رجل من المسلمين ان النار اجل منظراً واكثر بهاء من الارض وكلاهما من آيات الله وبديع صنعه ، اليس ذلك تقريراً لحقيقة واقعـــة لا ينـكرها أحد ولا يجادل بها ، وينبغي ألا ننسى ان قائل هذه الابيات رجل اعمى يعيش الظلمة المطبقة عمره كله فهو حري ان يكرهها ويبرم بها . وحري ان يحب النور ويرى فيه

(١) الاغاني ٣ / ٢١١ (٢) الاغاني ٣ / ١٤٠

لنفسه أنساً وأمناً وراحة .

ثم أرأيت إن حكمت أن الشمس أكثر بهاء من القمر أيصح ان يتهمك احد بعبـــادة الشمس واذا فضلت البقرة على الماعز أيصح ان تتهم بعبادة البقرة ، والخروج عن الاسلام الى الهندوكية ؟ أوليس في ذلك تطرف ومغالاة واسراف .

ونحن نعلم ان النار كانت معبودة لامم كثيرة فما ضرر أن يقول بشار ذلك وما مبرر اتهامه بالمجوسية ؟ أفلو كان شاعر من العرب قال ذلك أكنا نتهمه بما نتهم به بشاراً ؟

ولو قال احـد منـا ان الاصنام كانت معبودة العرب وآلهتها ، أيصح أن يتهم بالوثنية والرجوع عن الاسلام ؟

وقد عاب عليه استاذنا الدكتور شوقي ضيف رثاءه لاصدقائه ورأى انهم كانوا زنادقة معتمداً في ذلك على امالي الشريف المرتضى [1] ولـكننا لم نجد المرتضى [2] يشير الى زندقة اولئك المرثيين كما لم يشر ابو الفرج الى زندقة احـــد منهم عند ذكره لقصيدة اخرى في رثائهم [3] . وقد تبادل بشار وحمـــاد الهجاء واتهم كل منهما صاحبه بالزندقة [4] وشاعر الهجاء يقول كاذباً وصادقاً ولا يتخذ الهجاء حجة على خلق المهجو ودينه ، كما لا تقبل شهادة المتخاصمين في بعضهم البعض .

اما الخبر الذي يقول ان بشاراً كان يدين بالرجعة ويكفر جميع الامة بعد وفاة الرسول (ص) [5] فقد كان عدد كبير من المسلمين على اختـــلاف نحلهم يدينون بالرجعية والمهدوية وان كانوا يختلفون في شخصية المهدي المنتظر ، وهذا امر لا يعارض اصلا من اصول الدين ولا يخرج من يقول بذلك منه [6] .

اما تـكفير الامة فسوء ظن من الشاعر بالناس ، ولا يبرر تـكفيره . الا نجد الآن من

---

(١) تاريخ الادب العربي ٣ / ٢٠٦ (٢) امالي المرتضى ٢ / ١٣٣

(٣) الاغاني ٣ / ٢٣٤ (٤) الاغاني ١٤/ ٢١٠ ـ ٢١٣، ٣٠٩، ٣٦٢

(٥) الاغاني ٣ / ١٤٥ (٦) اصل الشيعة واصولها ٧٩

كهولنا من يؤمن بان الناس كفروا جميعاً وان الاسلام لم يعد له وجود وان الساعة آتية لشدة كفر الناس ومروقهم .

ونحن نجد في شعر بشار ما يشير الى شيء من الاعتزاز بالدين والفخر بالانتساب اليه والدفاع عنه . فقد قال يهجو عبدالكريم بن ابي العوجاء بعد ان صلب لزندقته ووضعه بالحديث الشريف :

قل لعبد الكريم يا ابن ابي العو ... جاء بعت الاسلام بالكفر موقاً
لاتصلي ولا تصوم فان صو ... مت فبعض النهار صوما رقيقا
لا تبالي اذا اصبت من الخم ... ر عتيقا الا تكون عتيقا
ليت شعري غداة حليت في الجيد حنيفا حليت أم زنديقا
أنت ممن يدور في لعنة الله صديق لمن . . . . الصديقا [1]

أترى ان هذا هجاء بقوله زنديق في زنديق ، افلو كان بشار زنديقا أفليس من المعقول ان يرثي عبدالكريم ويتوجع له . فاذا خاف الدولة وسلطانها أفليس من المعقول ان يسكت ولا يتعرض للرجل بمثل هذا الهجاء ؟

ثم الا ترى كيف يتهم بشار المنصور بالخروج على احكام الدين وشرعته ويدعو الناس للثورة عليه ومناصرة ابراهيم :

تجردت للاسلام تعفو سبيله ... وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين اهله ... عليك فعادوا بالسيوف الصوارم

ثم يقول في ابراهيم :

من الفاطميين الدعاة الى الهدى ... جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم [2]

أيقول هذا رجل لا يؤمن بالله ولا يغار على الاسلام وحرماته . واسمعه يقول ايضاً :

وما غاب بين الله والناس عامل ... له في التقى اوفي المحامد سوق

---

(١) الاغاني ٣ ـ ١٤٧ (٢) الاغاني ٣ ـ ١٠٧

ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن اخلاق الرجال تضيق [1]

أيقول هذا رجل لا يؤمن بالله ولا يتوكل عليه ولا يرى اثابته على صالح الاعمال .

وقوله وقد اراد مغازلة جارية صديق له . فندم على ذلك (من المتقارب) :

أتوب اليك من السيئات واستغفر الله من فعلتي
تناولت ما لم أرد نيله على جهل أمري وفي سكرتي
ووالله والله ما جئته لعمد ولا كان في همتي
والا فت اذن ضائعاً وعذبني الله في ميتتي [2]

أيقول هذا زنديق لا يؤمن بالتوبة وحساب القبر واليوم الآخر .

وخلاصة القول عندنا في عقيدة بشار انه لم يكن زنديقاً كافراً خارجاً عن الدين . كما انه لم يكن في الوقت نفسه شديد التدين والحرص على احكام الدين وتعاليمه . وانما كان رجلاً من عامة المسلمين لايكفر بالله ورسوله ولكنه لايتحرج ككثيرين غيره . من اتباع هواه وارتكاب المعاصي .

ولعله ليس من حقنا ان ننصب من انفسنا قضاة للناس ندخل منهم في الاسلام من نشاء ونخرج من نشاء ولسنا مطلعين على غيوب الناس وما تكن ضمائرهم وقلوبهم . وهم يوم القيامة يردون الى خالقهم فيفصل بينهم بالحق . يدخل في رحمته من يشاء ويعذب من يشاء وليس لنا الا ان نحسن الظن بالناس ولا نسرف في الحكم عليهم . وحسن الظن مقدم على سيئه .

والله الموفق للرشاد .

حسن عباس

---

(١) الاغاني ٣ ـ ٢٤٠ (٢) الاغاني ٣ ـ ١٨١

المصادر

١ — الاغاني ـ أبو الفرج الاصبهاني ـ دار الكتب والساسي (مصر) والثقافة .(لبنان)

٢ — بشار بن برد ـ الدكتور طه الحاجري مصر ١٩٦٣ .

٣ — اصل الشيعة واصولها ـ محمد حسين كاشف الغطاء بيروت ١٩٦٠ .

٤ — تاريخ الادب العربي (العصر العباسي) الدكتور شوقي ضيف ـ مصر (دار المعارف) .

٥ — تاريخ الطبري ـ محمد بن جرير الطبري ـ مصر ١٩٣٩ .

٦ — ديوان بشار ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٧ — حديث الاربعاء ـ الدكتور طه حسين ، مصر ١٩٦٠ .

٨ — مقاتل الطالبيين ـ أبو الفرج الاصبهاني ، بيروت ١٩٦١ .